معين بسيسو شاعر البدايات الصعبة

راسم المدهون

من الصعب على دارس تجربة معين بسيسو الشعرية ان يتنقل بين قصائده ومجموعاته دون أن يأخذ في اعتباره عاملين هامين حكما تجربة الشاعر الراحل وأثّرا ـ وإنْ بدرجات متفاوتة ـ في إنضاج تلك التجربة، وحتى في تحديد مساراتها وتشكيل همومها وموضوعاتها، ومن ثمّ تحديد ملامح عامة لهذه التجربة بكل ما يرتبط بهذه الملامح من تكوين خصوصية تميّزه في إطار حركة شعرية فلسطينية، وعربية، عاشت موار التيارات الفكرية والفنية، واكتوت بمؤثرات محلية أحياناً، وخارجية أغلب الأحيان.

وإذا كانت البداهة تفترض مزاوجة جناحي الابداع، الشكل والمضمون، فإن هذين الجناحين يصبحان في تجربة معين بسيسو، بالذات، أكثر من ضرورة؛ إذ هما ـ وبالنظر لعوامل سنفصلها لاحقاً ـ يبدوان التجربة بذاتها، بدءاً ومساراً، وانتهاء بالصورة التي إكتملت برحيل الشاعر، ولم تكتمل رؤيتها الشاملة، التي تظل مفتوحة للنقاد والدارسين. وخلافاً لكل التجارب الابداعية الأدبية، فإن التجربة الشعرية، بالذات، هي الاقدر على أن تكون مرآة تعكس صورة صاحبها من الداخل. سيظل الجدل محتدماً حول سلوك الشاعر وما يكتب، وحول التطابق أو التنافر بين هذا السلوك وبين إبداع الشاعر؛ لكن ما سيظل أكثر إقتراباً من الصدق الداخلي هو الابداع الشعري للشاعر الذي يكاد يكون صورة أخرى، ملامح داخلية يبوح بها على الورق:

«ثلاثون أو أربعون ملزمة من الورق. على امتداد عشرين أو ثلاثين عاماً من الكتابة، هل هذا هو بطاقتك الشخصية، أم وثيقة اتهامك التي تعلّقها كالايقونة حول عنقك، مقصلة صغيرة تتدلّى منها خواتم ومفاتيح لأصابع كثيرة ونوافذ كثيرة أيضاً»[1]. هكذا يقول الشاعر، وهو إذ يتساءل عن مصيره، أو مصير تجربته الشعرية، إنما يضع هذه التجربة في سياق مسار توأمها الروحي: الحياة. الحياة بكل غلظتها، بآكام دروبها وأشواك طرقها ونزف القدمين الحافيتين إذ تصران على الصعود، والصعود دوماً، على الرغم من سقوط صخرة المصير، وسقوط الشاعر بجسده الناحل معها من قمة الجبل الى منحدرات التعذيب في زمن عربي كان يدخل في الهزيمة ولا يكاد يخرج أبداً:

أنا في النهر صورة كسرتها ... يدُ أعمى خياله لمّاحُ
فتماسكت عالقاً بظلالي ... وهي تطفو كأنها ألواحُ
وتلفتُّ والرجاءُ غرابٌ ... ضلّ واليأس طائر صدّاحُ
والمصب العملاق أعورُ كالشمس ... قد إجتاح رأسه مجتاح
وحرام على المصب ابتلاعي ... وأنا منه جدول فوّاح[2]

الزمن في القياس النقدي لتجربة معين بسيسو الشعرية بالغ الأهمية؛ إذ هو يشير الى